الهوية ودورة الحياة: محاصرة الهوية

فرانسيس هرناندیز وفرنسيس ميركاد، تقديم وترجمة: محمد نبيل

تقديم

يحاول الباحثان فرانسيس هرناندیز وفرنسيس ميركاد في هذه الدراسة[1] تقديم مقاربة علمية لإشكالية الهوية في علاقتها بدورة الحياة، انطلاقاً من نسيج الروابط التي تجمع الفرد بالجماعة. ويسلط الباحثان كذلك الضوء على النقد الموجه لمفهوم الهوية، والعوائق التي تقف في وجه تعريف هذا المفهوم، باعتباره إشكالية عميقة الدلالات. هذا العرض يعد نافذة حية لفهم العلاقة، التي من الممكن أن تنتظم بين الهوية كسؤال إشكالي تتضارب حوله النظريات العلمية، وبين دورة حياة الأفراد والجماعات.

"يعد مفهوم الهوية من المفاهيم الأقل شفافية أو أكثر غموضاً من بين المفاهيم التي تستخدم في الكتابات العلمية؛ سواء حسب وجهة نظر الفرد أم التقسيم الشمولي الاجتماعي. ونجد العلوم الاجتماعية بتعريفاتها المختلفة، وأحياناً المتعارضة، والتي تضم مختلف القراءات النظرية الخاصة بعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس الاجتماعي. في الواقع، يتعلق الأمر بموضوع من الصعب للغاية بناؤه. الجزء الأكبر من العروض النظرية يأخذ مفهوم "الأنا المجرد" كقاعدة له (الأرض والسكان في الإطار الجماعي)، والجزء الأولي يتمثل في "خاصية" الفرد و"الشكل" الذي يتبناه هذا الفرد خلال مراحل نموه المتتالية (الإثنية، العرق، أو لحظة ثقافية معينة). أما الجزء الأخير، فيتجلى في تعريف الشخص "كبناء كلي" من الصفات والسلوكيات (تكوينات وبناءات اجتماعية وتراكمات ثقافية). ومن وجهة نظر "بنيوية"، يجب قلب نظام العوامل، من أجل التركيز أساساً على النقطة الأخيرة. وعلى الرغم من العلاقة الجدلية التي تربطها مختلف العناصر فيما بينها، يظهر لنا بشكل مؤكد أن الأفراد مثلهم مثل الجماعات، هم نتيجة للحظة تاريخية محددة في التطور الثقافي، والسياسي، والاقتصادي.

تُرى، ما هو المعنى الذي سيكون وراء التأمل في مفهوم الهوية في القرن الواحد والعشرين؟ بالنسبة للبعض، تسمح التكنولوجيا الحديثة والثورة التي حدثت في علم التحكم[2] باستقلالية أكبر، أما بالنسبة للبعض الآخر وعددهم كبير، فيعتبرون أن التغيرات الاجتماعية تضعنا في موقع متروبول[3] عالمي ومتجانس، لا يسمح بتحقيق أصغر فارق في الاختلاف خارج عالم الصور، والتمثلات، والخيال، والأشياء غير الواقعية.

نقد مفهوم الهوية

هناك العديد من الأصوات التي ارتفعت في مجال علم الاجتماع -بطريقة مباشرة أو غير مباشرة- ضد مفهوم الهوية. لقد حاولنا -لأسباب نظرية، ومنهجية، وأيديولوجية متعددة- بداية من دوركهايم إلى فرويد أو ماركس، توجيه النقد للمفاهيم التي لم تكن "موضوعية" في تفسيرها للظواهر الاجتماعية.

ومؤخراً، قام آلان تورين بالتلميح لمفهوم "الهوية" بطريقة جد حذرة. الهوية الاجتماعية بالنسبة لتورين هي نتاج سيرورة طويلة تخص استبطان القيم التي تفرضها الأيديولوجية المسيطرة. فطرق التكيف الاجتماعي تبرز للفاعل الاجتماعي إمكانياته في التكيف مع المجتمع والسلوكيات والمواقف التي تجعل كل تلك الطرق ممكنة. (Touraine, 1978 : 242-284)

التعمق النظري والتجريبي لمفهوم الهوية قد يستطيع -حسب تصوراته النقدية- تمثيل دور الفكر الاجتماعي المعياري للعصور القديمة أو الفكر المسيحي في العصر الوسيط. حاليا، وكما قد يتحول علم الاجتماع، باتباع هذا الطريق، إلى ثيولوجيا معاصرة (علم اللاهوت)، أو إلى وسيلة تقويم وضبط كما يعرِّف المحلل النفسي جان لاكان العلوم الاجتماعية.

وبالمقابل، يقترح تورين نقداً "لأوهام الهوية" عن طريق دراسة المجتمع المجرد من هذا القناع الأول (المقصود هنا أوهام الهوية). الظواهر الاجتماعية لا تفهم انطلاقاً من التصرفات العقلانية، فالأفعال الإنسانية تتميز بنقص في الهوية وحتى في الوعي. هوية شخص معين، ستكون حسب هذه الرؤية قناعاً لخضوعها وتبعيتها. قطعياً، العواطف التي تولّد سيرورات المطابقة تحيل خصوصاً على النماذج الاجتماعية المفروضة على الفرد من الخارج. إنها لا تساعد على تعريف الشخص نفسه، ولكنها عندما تأسس لواقعه من الخارج، فإنها تولّد إطاراً مستعبِداً.

تعتمد مجموع الأدوار الاجتماعية المقترحة على الفرد خلال عملية التكيف الاجتماعي، على شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية المتنافرة، التي تحاول -بجميع الوسائل المتوفرة لديها- الحفاظ على الشروط التي تجعل عدم المساواة ممكنة أي؛ تشرع اللامساواة كواقع

هوياتي. وبهذه الطريقة، فهوية الفرد -وهوية الجماعة- تستند أساساً إلى الدور الموكول إليها "اجتماعياً"، وليس إلى تعريف مستقل. وبذلك، يعرف تورين المجتمعات التقليدية بأنها تلك التي تنتج هوية قوية. وكما يشير مارغريت ميد (1977)، إلى إننا نقترب من عالم تسيطر عليه الثقافات ما قبل المرحلة التصويرية، عالم يكون فيه وزن التقاليد ضعيفاً، كما ستكون النظرة غير موجهة إلى الحاضر بل إلى المستقبل. بعض المجتمعات المتقدمة تتواجد سابقاً في هذه المرحلة من التكيف مع مستقبلها الخاص. مجتمعنا المعاصر يعرِّف الهوية في ارتباط مع ثوابت "متوقعة للمستقبل" بدلاً من البحث عن جذورها عن طريق النظر إلى الوراء. مفهوم الهوية يفقد صلاحيته في سياق هذا المنظور.

صعوبات التعريف

تدفعنا الملاحظة الأولية لحياتنا اليومية إلى أن نواجه تصرفات اجتماعية مقولبة، ونماذج تبلغها ميكانيزمات قوية لكل مواطن. هذا "الاختراق" لذاتية الفرد يشكل شبكة معقدة، تمارس ضغطاً قوياً خلال لحظات مختلفة من حياته، وعلى سبيل المثال، في عمله، في لحظات المتعة، في علاقاته العائلية . . . الخ. وبداية من المواقع التي تتمتع بأكبر قدر من الاستقلالية؛ سواء أكانت خاصة أم حميمية، وإلى حدود العلاقات الاجتماعية الأكثر اتساعاً، يجب على الفرد التنقل وسط خيوط عنكبوت لا مرئية ومعقدة، والتي تنغلق عليه.

يظهر أن "مجتمع المستقبل" يتأسس دائماً على التطور المتصلِّب للعلم والتقنية. فمن جهة، نزعم أننا وصلنا إلى المستويات الأكثر رقياً في التطور الاقتصادي والرفاه الاجتماعي. أما من جهة أخرى، فنجد أن سلطة النخبة المفكرة في طريقها إلى التوطيد عن طريق السيطرة على كل سيرورة المطابقة الجماعية، ويتم ذلك بدعم من نماذج ثقافية ذكرت سابقاً في هذا العرض.

مجتمعنا جد متطور، تقني، صناعي، جماعي ومتقدم، وقد نجح في تحقيق "وحدة اجتماعية" جديدة تتأسس -ظاهراً- على التعدد، لكن هذه الوحدة تنبني أساساً على سيرورة المراقبة الاجتماعية الكبيرة التي تسبب في "التحامات راسخة" أو مماثلات سلبية غير واعية بسيرورة الاستلاب، كما تمتصها قوة الثقافة التي يقال عنها جماهيرية وفي خدمة الجماهير، لكنها في العمق هي مهيأة كي لا تبدي أي التزام.

وعلى الرغم من أن هذا الأمر يبدو متناقضاً، فإن التعدد الظاهر يعد بدقة، من بين العوائق التي تمنع تأسيس هوية جماعية نقدية وديناميكية. يتبين لنا أن هناك تضاداً بصرياً كبيراً؛ سواء في اللحظة التي تسلط فيها النظرة حول الذات (مثلاً عندما يطرح السؤال: كيف أنظر لنفسي بنفسي؟) وكذلك الرؤية الشخصية للآخرين، (مثلاً في سؤال: كيف أعتقد أنهم ينظرون لي؟) إضافة إلى حقيقة قراءات الآخرين (سؤال: كيف ينظرون إلي بالفعل؟).

يجب على تعاريف مفهوم الهوية أن تنطلق من نموذج يتكون "من مدخلين": يجب التوفر، من ناحية، على المنظور الفردي (الشخصي) الذي يخص البنية المنظمة للهوية الشخصية، ومن ناحية أخرى، على الرؤية الاجتماعية التي ترتبط بالثقافة والإحساس بالانتماء (الأمة) التي تمثل مرجعاً للبنية المنظِمة للهوية الجماعية.

هوية، بنيات اجتماعية، ودورة الحياة

انطلاقاً من التأملات الواردة سلفاً، نصل إلى النواة النظرية التي تهمنا في سياق هذه الدراسة. طبعاً، من المستحيل أن يكون الانطلاق من التأملات النظرية كافياً لكي نستوفي تحليل سيرورة المطابقة الجماعية. يجب على البحث التجريبي -كميا وكيفيا- أن يكمل هذه التأملات بالبحث عن مؤشرات جديدة في علاقتها بموضوع البنيات الاجتماعية والهويات الجماعية. وعلى الرغم من هذه التحديدات، فإننا نرغب في اقتراح إطار نظري تطرح فيه الأسئلة بطريقة تتجاوز الوصف من أجل الوصول إلى التحليل السوسيولوجي في إطار برنامج أوسع للبحث العلمي.

لقد تحدثنا سابقاً حول الطريقة التي بواسطتها يتألف مفهوم الهوية خلال "لحظات" عدة متتالية، والتي تكوِّن حياة جماعة ما. إن الهويات الجماعية تتركب بدقة، انطلاقاً من علاقات اجتماعية تحولت إلى أشياء. الهوية الجماعية هي نتيجة "مجموع" أطر اختلافات المطابقة، التي تبدأ من الفرد وتنتهي بما هو اجتماعي. الهويات تتأسس -إذن- على ديمومة مجموع الخصائص أو الصفات التي هي قسراً "خاصة". سيرورات المطابقة تعرف صورة ما بأنها لا مفر منها (لا يمكن أن نتخلص من هويتنا الخاصة). لنُذكِّر بعبارات الشاعر شارل بودلير في كتابه "**زهور الألم**"، وبخاصة في نصه المعنون بـ "البطرسي" (طائر بحري كبير): "لاجئ في أرض، وسط حشود بشرية، أجنحته العملاقة تعيق سيره".

الاختلالات على مستوى الهويات الجماعية، هي بالضبط أحد محاور الحركات القومية. عدم القدرة على إدماج هويات متعددة و"خاصة"، يولِّد "حالة اجتماعية مَرضية"، ويكثف قدرة كبيرة في رد الفعل. الدراسات في الباثولوجيا الإكلينيكية التي يقوم بها الأطباء وعلماء النفس؛ مثلاً تحليل الهوية غير المدمجة وفحصها، عدم الاعتراف بالذات في الزمن، هي في ارتباط مع ما يمكن تسميته بالاختلال في الإحساس بالانتماء الجماعي. لكن، وبشكل متناقض، تشير الدراسات حول الهوية في سياق المنظور الفردي، إلى أن كل باثولوجيا تحتاج إلى دعم عنصر اجتماعي خاص بالهوية. الإحساس بالهوية يتوطد إذا ازدادت العلاقة مع العالم "الخارجي". في وضعيات العزلة (نموذج روبنسون كروزوي)، تظل الطريقة الوحيدة من أجل الحفاظ على الحياة هي أن نخلق عالماً خارجياً خيالياً، دون أن نمر بأزمة شخصية عميقة.

وبالطريقة نفسها، حسب وجهة نظر ماكرو-سوسيولوجية، يتم النظر إلى الإحساس بالهوية بحذر، والتحليل يخص بالضبط الوجه "المَرضي"، لكن ننسى أنه يجب على الإحساس بالهوية أن "يضيف" مختلفَ أطر الانتماء "الهويات المشتركة". الهوية هي بدقة أكبر، طريق الألفة. إن مجموع الميكانيزمات التي تدعم هوية الفرد، وكذلك قيامه بعملية الإسقاط على الهويات الجماعية، تعتبر بالطبع عنصراً أساسياً في النظام الاجتماعي.

لنأخذ مثال الطرق التي تخول لجماعة ما أن تحافظ على هويتها، ويلخصها سوروكين في أربعة أنواع: أولاً، فرض مجموعة من القوانين والقواعد التي تترك هامشاً "للتأويل الشخصي". ثانياً، انتقاء الأعضاء وإقصاء أولئك الذين لا يتكيفون. ثالثاً، إرسال نماذج (أيديولوجيا) إلى أولئك الذين يندمجون عن طريق التكيف السياسي. ورابعاً، بناء ميكانيزمات

رمزية وشعائرية (Sorokin, 1997).

هذه المقاربة تتأسس ضمنياً على تصور لهوية تتضمن وجود صفات لا تتغير في الزمن. لكن من المهم أن نسجل أن نواة استمرار جماعة معينة هي طبعا الهوية وليس الصفات. هذه الأخيرة، يمكن لها أن تصبح "مختلفة" في الزمن، مع بقائها بشكل متناقض "ثابتة"، بما أنها تستمر في إخلاصها إلى المبادئ نفسها.

عندما نتخذ، كمرجع، الهويات القومية، وحركات سياسية عدة، وكذلك بعض الدراسات التي تظهر أنها "علمية"، فإن ذلك يؤدي بنا إلى الخلط بين الهوية والصفات، مع الإشارة إلى أنه يمكن لصفة معينة أن تصل حتى تحل محل الهوية. إن الخلط بين "ثبات" الصفات وعدم قدرتها على "التغير"، يمنعنا من فهم ظاهرة الهوية الجماعية المعقدة. طبعاً، يجب على الهوية بالفعل أن "تتغير" بشكل دائم من أجل أن تستمر "كما هي". الهوية القومية مثلاً، قائمة لكنها تعرَّف مجدداً وبشكل دائم من خلال التاريخ. وبالتأكيد، حسب ما يظهر لنا، لا يمكن لنا القول "إن الهوية القومية لبلد الباسك عنيفة"، أو "إن القومية الكاتالانية سلمية"، هذه التبسيطات لا يمكن لها أبداً أن تكون إثباتات سوسيولوجية، لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار البعد التاريخي الذي يفسر "شكل" الحركات القومية في كل لحظة ثقافية، اجتماعية، سياسية، واقتصادية. القوميون في أسبانيا، يقدمون لنا مجالاً استثنائياً للاشتغال والدراسة من أجل تحليل الهويات الجماعية ودورات الحياة. لنظل مع هذا المثال. إن صيغة الهويات الجماعية المشتركة تسمح بتحليل الحركات القومية في سياق مختلف مراتب الهوية الجماعية. في إطار التحليل، من المفهوم أن "الهوية نفسها" تسمح بسلوكيات مختلفة، بل حتى بسلوكات متناقضة، إذا تم تحليلها في إطار منظور أوحد.

تستجيب الهويات وتعبيراتها من خلال المواقف والسلوك الإنساني لمبدأ "أداتي" (القدرة على التنقل في فضاء اجتماعي معين) وكذلك لعناصر رمزية (إمكانية اقتسام وتبليغ أحاسيس معينة). إذا تخيلنا مثلاً، أجنبيا يعيش في بلدنا ويتحدث اللغة الفرنسية بإتقان، فمن الصعب عليه أن يصل إلى السيطرة على التلاعب بالألفاظ، الجمل الحاذقة، المعاني المزدوجة، أو أن يشرك النبرة والتغيرات في مقام الصوت. في هذه الحالة، فدور "الأجنبي" ليس له دلالة وظيفية فحسب، بل كذلك دلالة عاطفية.

الهوية هي قبل كل شيء العلاقة المفاهيمية بين الفرد وثقافته. في مجموع الصفات التي تحدد أمة، يمكن لنا أن نميز بين "الأشياء المقرَّرة سلفاً" (أرض، لغة، شعب) و"الخبرات" (الخاصية القومية والخريطة الثقافية)، و"الأشياء المتبناة" والذي تستجيب للحظة تاريخية معينة، ولها وزن ظرفي (إحساس الضحية، استعمال العنف، وضعية "سلمية")، وأخيراً نجد العناصر التي من "المفترض" أن نميز بينها وبين "الأشياء المتبناة"، بحيث يمكن أن توجد ضمن "الخاصية القومية" بطريقة جوهرية. كل هذه الأنواع هي متشابهة لتلك التي تشكل هوية شخص ما طيلة دورة حياته.

تحليل الهويات الجماعية يقصد دائماً الهوية إلى جانب الأحاسيس المتفرعة عنها. عندما لا يوجد هناك صراع بين دوائر الانتماء المختلفة، يظل الإحساس بالمطابقة في مستوى ثانٍ وأقل وعياً. ومن أجل العودة إلى المثال الذي استخدمناه مرات عديدة في هذا النص، يمكن القول إنه عندما تقع الصراعات القومية، يمر الإحساس بالمطابقة إلى المستوى الأول، ويخترق كل الظاهرة الاجتماعية، وبكل تأكيد، هو أكثر اتساعاً ولا يختزل في مظهر واحد".

محمد نبيل
صحافي وباحث مقيم بألمانيا

الهوامش

[1] Francesc Hernandez et Francesc Mercade, «Identité et cycle de vie», Enquête, Biographie et cycle de vie, Cahiers du CERCOM, publié conjointement en mars 1989 par l'EHESS, le CNRS et l'université de Nice.

[2] نقصد هنا السيبرنطيقا.

[3] نسبة إلى الحياة المعولمة القائمة على انصهار التعدديات والخصوصيات في كل متحرك، في المدن الكبرى (عواصم الإمبراطوريات).

المراجع

- M. Mead, (1997), *Cultura y compromiso,* Barcelone, Granica, 1977
- P. A. Sorokin, (1997). *Sociedad, cultura y personalidad,* Madrid, Aguilar.
- Touraine (1978). *Introduccion a la sociologia,* Barcelone, Ariel.

الحالة الفلسطينية.